فضائل التوحيد

تأليف:

حسين بن محمد الشمري

تقديم فضيلة الشيخ

سعد بن شايم العنزي


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد أتحفني أخي في الله الشيخ حسين بن محمد بن حميدي الشمري وفقه الله تعالى، بكتابه المفيد النافع الذي أسماه [**فضائل التوحيد**] الذي أحسن في جمعه وتأليفه وحسن بيانه وترتيبه، ورغب إليَّ أنْ أقدم له بمقدمة تعريفية، فاعتذرت إليه، لعلمي بمقامي وقصوري عن ذلك المقام، لكنه أصر عليَّ بذلك، فوافقت إكراماً لشأنه –وفقه الله– وإن كنت دون ذلك، والكتاب ومادته وموضوعه أعلى شأناً من تقديمي لما تضمنه من المسائل المفيدة والفضائل العديدة لمن حقق مقام التوحيد، وما أعدَّ الله له في الدنيا والآخرة،

فأنصح كل مسلم مهما كان مكانه من العلم والإيمان أن يحرص على قراءته والإفادة منه، فإنّ فيه من العلوم الربانية والسنن النبوية ما يشرح الله به صدور المؤمنين ويرغِّب بالإقبال على توحيد رب العالمين ، فجزى الله مؤلفه الشيخ حسيناً خير الجزاء، إنه جواد كريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه/

سعد بن شايم العنزي

مدير مركز الدعوة والإرشاد بعرعر

المقدمة

الحمد لله الذي رضي الإسلام للمؤمنين دينًا، ونصب الأدلة على صحته وبيّنها تبيينًا، وغرس التوحيد في قلوبهم، فأثمرت بإخلاصه فنونًا، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هاديًا ومعينًا.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٩].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه: ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فإن دين الإسلام، هو الدين الذي رضيه الله دينًا للعالمين، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار.

إذ معنى الإله: هو المعبود المطاع، وذلك هو دين الله الذي ارتضاه لنفسه وملائكته ورسله وأنبيائه.

فبه اهتدى المهتدون، وإليه دعا المرسلون. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

﴿... يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فلا يتقبل من أحد دينا سواه من الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

شهد الله تعالى بأن التوحيد دينه قبل شهادة المخلوقين، وأنزلها تتلى في كتابه إلى يوم الدين، فقال تعالى وهو العزيز العليم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وجعل أهله هم الشهداء على الناس يوم القيامة، لما فضلهم به من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات التي توجب إكرامهم، فقال تعالى ولم يزل عزيزًا حميدًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وفضله على سائر الأديان، فهو أحسنها حكماً، وأقومها قيلاً. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

❋ وكيف لا يميز من له بصيرة بين دين أُسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان وارتفع بناؤه على طاعة الرحمن، والعمل بما يرضاه في السرو الإعلان، وبين دين أُسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار بصاحبه في النار، أُسس على عبادة الأصنام والأوثان، والالتجاء إلى الصالحين وغيرهم من الإنس والجان، عند الشدائد والأحزان، وصرف مخ العبادة لغير الملك الديان، ورجاء النفع والعطاء والمنع ممن لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضراً.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ﵀: «فإن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أربابًا، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم؟!»(١).

ولذا فإن الدعوة إلى بيان توحيد الله، وبيان فضله وحقيقته، وتوضيح نواقضه والتحذير منها، وبيان حقيقة ما دعا إليه رسول الله ﷺ وحمايته ﷺ لتوحيد الله، وتحذيره من الشرك وأسبابه من الأمور المهمة التي يجب على الدعاة الاهتمام بها، وتقديمها في دعوتهم إلى الله على كل شيء.

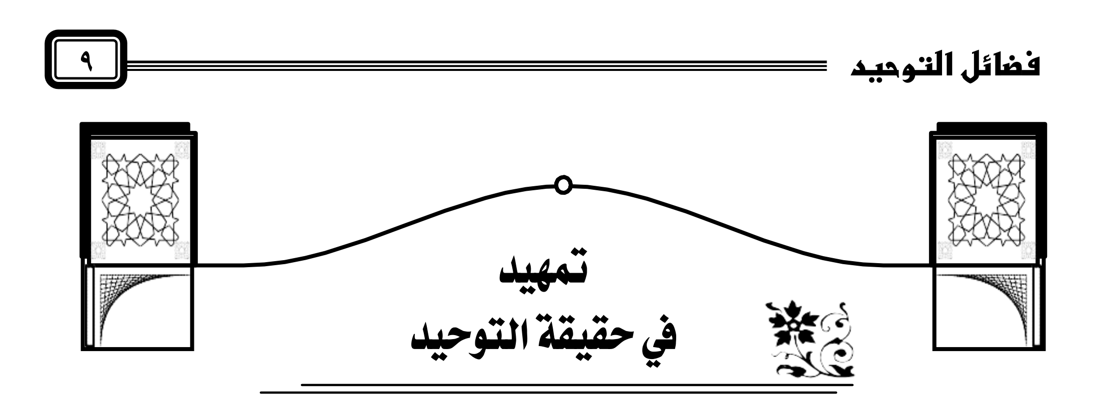
وقد رأيت أن أضع بين يديك أخي القارئ الكريم، بعضًا من فضائل التوحيد في الدنيا والآخرة وعلى الفرد والمجتمع، مما ستراه مسطراً بإذن الله في هذا المؤلف ، وقدمت بين يدي الفضائل تمهيداً في حقيقة التوحيد الذي أراده الله من العبيد، وأنواعه، سائلًا الله سبحانه أن يحيينا على التوحيد ويميتنا عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه/
حسين بن محمد بن حميدي الشمري
منطقة الحدود الشمالية– محافظة العويقيلة
٠٥٠٦٣٨٣٥٣٧

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٩٠).

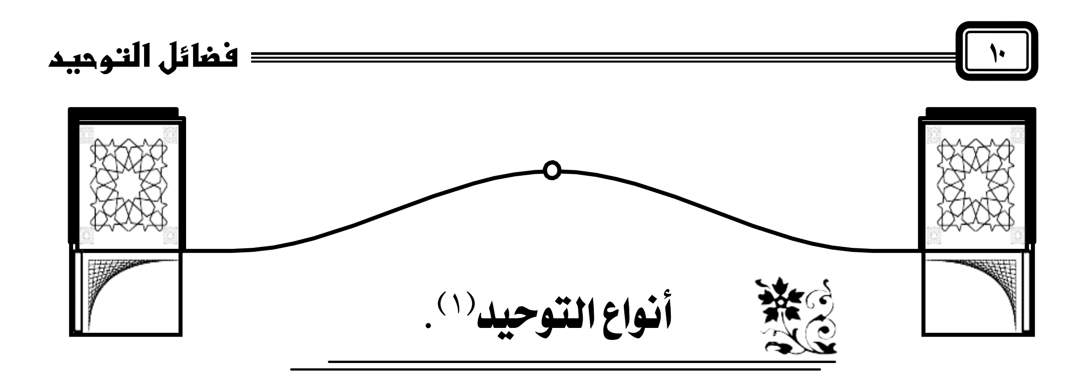


تمهيد في حقيقة التوحيد

التوحيد بمعناه المطلق؛ هو العلم والاعتراف المقرون بالاعتقاد الجازم، بتفرّد الله ﷻ بالأسماء الحسنى، وتَوَحُّدِهِ بِصفات الكمال، والعظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

قال العلامة السعدي رحمه الله: «أي متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك: في ذاته، ولا سمي له، ولا كفء، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره؛ فإذا كان كذلك فهو المستحق؛ لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه» ا.هـ

والتوحيد على هذه المعاني: «هو إفراد الله تعالى بما يختص به: من الأسماء، والصفات، والألوهية، والربوبية».



أنواع التوحيد[(١)].

أنواع التوحيد ثلاثة:

النوع الأول: توحيد الربوبية، وهو: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو الرب المتفرّد بالخلق، والملك، والرَّزْق، والتدبير، الذي ربّى جميع خلقه بالنعم، وربّى خواص خلقه -وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم المخلصون- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدنيا والآخرة.

فتوحيد الربوبية باختصار: هو توحيد الله تعالى بأفعاله.

النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله هو المنفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفيٍ لشيءٍ منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تكييف. ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص

(١) ينظر: (القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد) تأليف الشيخ د/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. ومقدمة (تيسير العزيز الحميد) للشيخ/ سليمان بن عبدالله آل الشيخ.

والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

النوع الثالث: توحيد الإلهية، ويقال له: توحيد العبادة، وهو الاعتقاد الجازم -مع العلم والعمل والاعتراف- بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين كله لله، وهو يستلزم توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي صفة تعمُّ أوصاف الكمال، وجميع أوصاف الربوبية والعظمة؛ فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والإفضال، فتوحُّدُهُ سبحانه بصفات الكمال، وتفرّدُه بالربوبية، يلزم منه أن لا يستحقّ العبادة أحد سواه.

وتوحيد الألوهية باختصار: هو إفراد الله تعالى بعبادة العباد.

وتوحيد الألوهية: هو مقصود دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أولهم إلى آخرهم.

وهذا النوع قد تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، و ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران:٦٤]، وأول سورة السجدة وآخرها، وأول سورة غافر ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وغالب سور القرآن.

وكل سور القرآن قد تضمنت أنواع التوحيد، فالقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير أنواع التوحيد؛ لأن القرآن كله:

إما خبر عن الله تعالى وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، فهذا هو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي: [توحيد الربوبية والأسماء والصفات].

وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، وهذا هو التوحيد الإرادي الطلبي [توحيد الألوهية].

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعة الله، وذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد، وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده سبحانه.

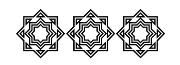
وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في الآخرة من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه، وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم.

فتوحيد الألوهية هو معنى الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله عز وجل، والتقييد بحق يخرج به الآلهة المعبودة بباطل فإنها قد عبدت. والمنفي هو استحقاق العبادة عن غير الله عز وجل لا وقوعها، وهذه هي شهادة أن لا إله إلا الله. قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده قطبان

وعليها فلك العبادة دائر ... ما دار حتى دارت القطبان





فضائل التوحيد

الفضل الأول:
حصول الأمن والهداية للموحد

♦ اعلم أخي المسلم -أرشدك الله لطاعته- أن كل إنسان له من الأمن بقدر توحيده وعبوديته لله، وله من الاهتداء والهداية على قدر نصيبه من التوحيد.

ودليل هذا الفضل: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

فالذين آمنوا الإيمان التام الذي لم تَشُبْهُ شوائب الشرك الأكبر المنافي لجميعه، ولا الشرك الأصغر المنافي لكماله، ولا معاصي الله المحبطة لثمراته من الطاعات، فأولئك لهم الأمن التام من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والاهتداء التام في الدنيا والآخرة. وبحسب ما ينقص من الإيمان ينقص من الأمن والاهتداء، وباجتناب الشرك الأكبر والأصغر يحصل مطلق الأمن والاهتداء، وباجتناب المعاصي يحصل تمامهما.

قد روى الإمامان البخاري وأحمد[1] -واللفظ له- كلاهما من طريق إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٠)، والمسند برقم (٤٠٣١).

عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣]. إنما هو الشرك.

فالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ظنوا أن المراد بالظلم في الآية هو ظلم الإنسان نفسه بالمعاصي أو ظلم الآخرين من الناس، وهذا مما يشق على المرء التخلص منه؛ فخشوا ألا ينالوا هذا الفضل العظيم، لكن النبي ﷺ بين لهم أن المراد بالظلم في الآية إنما هو الشرك الذي هو ضد الإيمان.

فعلم بهذا أن الظلم ينقسم إلى قسمين:

الأول: ظلم العبد نفسه وهو على درجتين:

الدرجة الأولى: ظلم العبد نفسه بالشرك وهذا أعظم الظلم، وهو الظلم الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه والإقبال على الله بعبادته وحده.

الدرجة الثانية: ظلم العبد نفسه بما دون الشرك من المعاصي، وهذا يتفاوت بحسب المعصية، فظلم النفس بفعل الكبائر ليس كظلمها بفعل الصغائر. وإن كان الكل سبيلٌ إلى شقاء العبد وبعده عن ربه.

الثاني من أقسام الظلم: ظلم العبد غيره من إنسان أو حيوان.

وفي هذا يقول النبي ﷺ: **«الظلم ظلمات يوم القيامة»** رواه مسلم من حديث جابر[(١)].

وهذا الفضل الأمن والهداية ناله بعض الصحابة فقد بشر النبي ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو راوي الحديث السابق بأنه ممن ناله هذا الفضل.

فقد ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦١) قال ابن مردويه: حدثنا

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٨).

الشافعي، حدثنا محمد بن شداد المسمعي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾. قال رسول الله ﷺ: «**قيل لي أنت منهم**».

وروى الإمام أحمد عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يُوضِعُ نَحْوَنا، فقال رسول الله ﷺ: «**كأن هذا الراكب إياكم يريد**»، فانتهى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه، فقال له النبي ﷺ: «**من أين أقبلت؟**» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي، قال: «**فأين تريد**»؟ قال: أريد رسول الله ﷺ قال: **فقد أصبته**، قال: يا رسول الله علمني ما الإيمان؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت**» قال: قد أقررت، قال: ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان فهوى بعيره، وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات. فقال رسول الله ﷺ: «**عَلَيَّ بالرجل**» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا: يا رسول الله قبض الرجل قال: فاعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «**أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً**»، ثم قال رسول الله ﷺ، هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ الآية، ثم قال: «**دونكم أخاكم**» فاحتملناه إلى الماء، فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ، حتى جلس على شفير القبر

فقال: **«ألحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا»**[١].

وهذا الفضل عام للموحد في نفسه وفي ماله وفي أهله، فالموحد معصوم النفس والمال والعرض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»**[٢].

ولا يكفي الإقرار بلا إله إلا الله لعصمة النفس والمال حتى يتبرأ ويكفر ويترك كل معبود دون الله. قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

عن أبي مالك، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: **«من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله، ودمه، وحسابه على الله»**[٣].

وهذا الحديث والذي قبله من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه[٤].

---

(١) المسند برقم (١٩١٧٦).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) ينظر: تيسير العزيز الحميد (١/ ١١٥).

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أقال لا إله إلا الله وقتلته؟»** قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: **«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟»** فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[1]. وفي رواية: «إنما كان متعوذا». وفي رواية: «أوجع في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا».

وهذا الأمن كما يشمل الفرد فإنه يشمل المجتمعات والدول ، فالمجتمع الموحد لله الذي بنى أركانه على توحيد الله والبُعد عن الشرك من عبادة القبور والذبح لغير الله والاستعانة والاستعاذة بالأولياء والصالحين، وكان خالياً من المظاهر الشركية، فإنه يكون محفوظًا بإذن الله ويكون مستحقًا للأمن فلا يَعتدي عليه معتدٍ. وإن أُعتدي عليه فالمعتدِى مدحور مقهور بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(١) رواه مسلم برقم (١٥٨).

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

وأيضًا فمن وحد الله سبحانه بالعبادة فقد أصاب ووفق للهداية بحذافيرها، فيوفقه الله لسلوك طريق الهداية ويهيئ له أسبابها ويثبته عليها، ويعصمه ويبعده عن طريق الضلالة.

وهل الهداية إلا بتوحيد الله والبعد عن الشرك؟

وهل تقرب المتقربون إلى ربهم بأفضل من إخلاص العبادة لربهم سبحانه؟.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

وكذلك الهداية كما تكون للأفراد فإنها تكون أيضا للمجتمعات والدول، فالدول التي تعمل بشرع الله وتحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقيم توحيد الله بين العباد وتدعو اليه وتحذر من الشرك وتحاربه وتزيل مظاهره وشعائره، فإن الله يكتب لها الهداية، فتقل المعاصي والمنكرات وتختفي الشركيات وتندثر البدع وتظهر السنن؛ فيكتب الله لها الخيرات الكثيرة، والبركات المتنوعة في اقتصادها ومعاشها وسائر شؤونها. ويمكّن لها في الأرض وينصرها على عدوها.

ولاشك أن الصحابة أفرادًا ومجتمعاً كان لهم قصب السبق والفوز الأوفى بهذا الفضل، فإنهم لما اتبعوا هدي النبي ﷺ وقاموا بتوحيد الله ونبذوا الشرك وأسبابه ووسائله، هداهم الله وأمنهم بعد خوفهم.

وجمعهم على الحق بعد فرقتهم، فكانت القبيلة تصبح على الشرك ، وما إن تسمع كلام الله، ودعوة رسول الله ﷺ، فلا تمسي إلا وهي خاضعة منيبة الى ربها، فيتغلغل الإيمان إلى سويداء قلوب أبناءها، فينقلبوا إلى مؤمنين موحدين بل داعين إلى الاسلام مخلصين، وذكّرهم الله بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

فكانوا حقاً كما وصفهم ربهم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦].

أما من لم يوحد الله ولم يخلص العبادة لله، فإنه محروم من هذا الفضل العظيم، فلا تجد المشرك أو المنافق آمناً ولا مهدياً، وكيف ينال الأمن وقد كفر بالله؟ واتخذ من دونه آلهة يعبدهم ويتقرب اليهم بأنواع الشركيات؟

قال تعالى عن اليهود الكافرين مبينًا خوفهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

فهؤلاء ضرب الله على قلوبهم فأخافهم وما أمنهم، ومن شدةٍ خوفهم أنهم لا يقاتلون المؤمنين إلا في قرى محصنة يتحصنون بها عن المسلمين، لا شجاعة من أنفسهم بل لوجود التحصين أو الجدر التي يقاتلون من وراءها.

وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١].
ثم بين الله السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. أي ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة، من غير حجه ولا برهان وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شده وضيق.

وقال تعالى: عن الكفار مبيناً خوفهم لما أشركوا بالله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]. أي كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع، فزاد الانسُ الجنَّ رهقاً -أي طغيانًا وتكبرًا-، لما رأوا الأنس يعبدونهم ويستعيذون بهم، ويحتمل الضمير -الواو- في زادوهم يرجع إلى الجن -أي زاد الجنُ الإنسَ ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم-، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

أما الشارع الحكيم فقد أتى بمنبع الأمن وهو توحيد الله سبحانه وتعالى والأخذ بالأسباب الشرعية والحسية.

ومن ذلك ما روى مسلم عن خوله بنت حكيم رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما**

خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[١]. فهذه اسنعاذة توحيد.

قال القرطبي ﷺ: «هذا خبر صحيح علمنا صدقه دليلاً وتجربه فمنذ أن سمعته عملت به فلم يضرني شيء إلى أن تركته فلدغتني عقرب ليلة، فتفكرت فإذا بي قد نسيته» ا.هـ

فأبدل الله عباده المؤمنين الاستعاذة الشرعية التي تعلق القلب بخالقه: «أعوذ بكلمات الله التامات من شرما خلق» بدلاً من الاستعاذة الشركية التي يلجأ إليها المشركون من الاستعاذة بغير الله من الجن والسحرة والكهان واتخاذ التمائم والحروز الشركية والبدعية واللجوء إلى القبور والاستغاثة بالمقبور.

وقال تعالى في شأن المنافقين مبيناً خوفهم وجبنهم: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون:٤]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأحزاب:١٩].

وهكذا كل من أشرك بالله وصرف العبادة لغير الله فهو في خوف دائم، وهلع قائم لا يطمئن قلبه، ولا تهدأ نفسه، إن اخلد إلى النوم فهو في خوف وأن استيقظ فهو في خوف؛ لأنه علق قلبه بغير الله، فوكله الله إلى ما تعلق به.

وقد ضرب الله مثلاً للمشرك الذي علق قلبه بغير الله، والمخلص لربه في عبادته، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧٠٨).

سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَر:٢٩].

فهذا مثال ضربه الله؛ لبيان وتقريب حال المشرك مع من يعبدهم فحاله كحال العبد الذي له أكثر من سيد، وأسياده متشاكسون -أي مختلفون فهذا يأمره بأمر ما-، والآخر يأمره بأمر آخر، والثالث يأمره بالقيام والرابع يأمره بالجلوس، فكيف يكون حال العبد؟.

لاشك أنه في حال عصيبة فلا يستقر ولا يرتاح، بل يكون في عناء دائم، فمن يطيع السيد الأول؟ أم الثاني؟ أم يقوم للثالث؟ أم يجلس عند الرابع؟

وهذا هو حال المشرك، تجده اليوم عند القبر الفلاني يدعو صاحبه لعله يرزقه، ثم غداً عند القبر الفلاني يدعو صاحبه لعله يرزقه ولداً، وبعد غدٍ عند الثالث يدعو لعله يشفي مريضه، فكل يوم له حال وكل يوم له مدعو وكل يوم له إلهه، والعياذ بالله.

فهل يفعل هذا عاقل، فضلاً عن رجل يدعي الإسلام؟ أليس الله هو الرازق؟ أليس الله هو المحيي المميت؟ أليس الله هو الذي بيده كل شيء؟ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزُّمَر:٣٦].

بلى والله، إذاً لماذا لا نتجه إلى الله وحده فندعوه سبحانه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

ثم زاد الله الأمر بيانًا فذكر ضد هذه الحال وهي: عبد له سيد واحد، عرف ماذا يريد سيده فقام بحقه خير قيام، فهو في راحةٍ تامةٍ، فهذه حال المخلص لربه، لا يدعو إلا ربًا واحدًا، يدعوه ويسأله

ويستغيث به ويستعيذ به، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة.

ثم قال الله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤].

الجواب: لا، لا يستويان، فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على تبيين الحق من الباطل.

ولما كان المرء لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ولا ينعم بنعمة، ولا يتلذذ بلذة إلا بالأمن، وذهاب الخوف والفزع، أعطى الله أهل الجنة هذا الفضل العظيم، حتى تكتمل فرحتهم ويتم سرورهم، ولا تتكدر لذتهم ولا يتنغص عيشهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الانبياء:١٠١-١٠٣]. وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩)﴾ [النمل:٨٩]. وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠].

* قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٥) عند هذه الآية: قال المعتمر ابن سليمان عن أبيه: «إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم: قال: فيتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين» ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ [فاطر: ٣١ - ٣٥].

وكذلك الهداية فإنها تطلب من واهبها ومعطيها وهو الله وحده. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني اهدكم**»[(١)].

فمن أراد الهداية التي لا ضلال بعدها؛ فليخلص لله في عبادته وليخلص نفسه من الشرك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وقال تعالى حاكيًا قول أهل الجنة ونسبتهم نعمة الهداية لله وحده وامتنانه وتفضله بهدايتهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٢، ٤٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

الفضل الثاني:
التمكين في الأرض والنصر على الأعداء

فإن الله وعد من عبده العبادة الخالصة وترك الشرك، وتبرأ منه ومن أهله، وابتعد عنه، وعده بالتمكين في الأرض، وبسط الملك، والغلبة على الأعداء.

ودليل هذا الفضل: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

* قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية (٤/ ٣٠٤): «هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض -أي أئمة الناس والولاة عليهم-، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمناً وحُكماً فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عُمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة -رحمه الله وأكرمه-.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمَّ شَعثَ ما وَهَى عند موته،

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﵁ ففتحوا طرفًا منها، وقتلوا خلقًا من أهلها، وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة ﵁ ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ﵁ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قيامًا تامًا، لم يدر الفلك بعد الأنبياء - عليهم السلام- على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله.

وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله -عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة-.

ثم لما كانت الدولة العثمانية[1]، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد

(١) أي خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﵁.

ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدًا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبِي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن.

ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»**[١].

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا" ا.هـ.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله عند تفسير هذه الآية ص (٥٧٣): «هذا من وعوده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلابد أن يوجد ما وعدهم الله» ا.هـ.

* وقد روى الإمام أحمد: عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»**[1].

وأنظر أخي المسلم -رعاك الله- كيف أن الله قيد الاستخلاف والتمكين والأمن -في الآية- حال كونهم قائمين بعباده الله مبتعدين

(١) المسند برقم (٢١٢٢٠).

ومتبرئين من الشرك؛ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾فإن غيروا حالهم من العبادة إلى غيرها، ومن نبذ الشرك إلى فعله ومحبته فلن ينالوا هذا الوعد المبارك. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

إذاً النصر والعز والسؤدد لا يحصل للعبد الا بطاعة الله والإقبال عليه، وصرف العبادة له وحده سبحانه وتعالى، وكل من طلب التمكين في الأرض فقام داعياً الى التوحيد ومحذرًا من الشرك وغوائله كان الله له مؤيدًا ونصيرًا.

فهذا نبينا وقدوتنا محمدٌ ﷺ كانت حياته الدعوية دعوة إلى التوحيد ونبذاً للشرك ،فأعطاه الله الغلبة على الأعداء، ومكّن له في الأرض، وآمن به أهل الجزيرة ودخلوا في دين الله أفواجاً.

وهكذا كل من دعا إلى الله وقام أولًا: بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك فإن التوفيق حليفه بإذن الله.

وهذا شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله لما قام بدعوته إلى التوحيد ونبذ ما عليه أهل الجزيرة العربية من الشرك نصره الله، ومكن له في الأرض هو وحليفه الإمام محمد بن سعود رحمه الله حين تعاقدا وتعاهدا على الجهاد في سبيل الله ونشر العقيدة الصحيحة وتحذير الناس من الشرك والبدع والخرافات فكانا نموذجًا مباركًا لمن أراد التمكين في الأرض.

فالتوحيد الخالص يهب صاحبه عزة النفس؛ لما يشعر به من معية الله تعالى له، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤].

ومن كان هذا توحيده، وكانت هذه عقيدته فلن يستكين ولن يستعبد لغير الله تعالى.

وهذه الأنفة من الخضوع والعبودية لغير الله تعالى يصاحبها التواضع والرحمة لعباد الله المؤمنين كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، والمؤمن يعلم أن واهب العزة هو الله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

فعزة المؤمن عزة إيمان وحق، وعزة غيره عزة غرور وفجور وكبرياء ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

ولقد ذم الله أقواماً يطلبون النصر والغلبة والعزة من غيره سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٧]. وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨، ١٣٩].

فنفى أن تكون العزة عند الكافرين وأثبتها لنفسه وحده سبحانه؛ لأنه هو العزيز سبحانه ومنه تطلب العزة ولا يعطيها إلا لمن آمن به.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

❋ قال ابن كثير رحمه الله (٣/٥٥١): «أي من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله

تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعًا».

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

* قال ابن كثير رحمه الله (٢/ ٤٣٥): «والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد».

ويناسب أن يذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبادة بن نسي، عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ قال: **«من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزًا وفخرًا، فهو عاشرهم في النار»** ا.هـ[1].

۞۞۞

(١) انظر: المسند برقم (١٣٣) وقد تفرد به أحمد وأبو ريحانة أزدي، ويقال: أنصاري. اسمه شمعون بالمعجمة، كما قاله البخاري، وقال غيره: بالمهملة، والله أعلم.

الفضل الثالث:
أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد.

ودليل هذا الفضل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤].

فمن أشرك مع الله غيره في العبادة فقد كفر سواء صرف العبادة لملك أو نبي أو عبد صالح أو حجر أو شجر أو صنم، ولا يقبل الله منه أعماله الصالحة ولو كثرت أو تنوعت ما دام مشركًا. كما قال تعالى ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ابن جدعان[١] كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعة؟ قال: **«لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**[٢].

فكل من صرف العبادة لغير الله فقد أشرك، ومن أشرك فإن أعماله الصالحة لا تنفعه مهما بلغت.

---

(١) عبدالله بن جدعان التيمي القرشي كان من أجواد العرب المشهورين.
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٦٥).

ولمسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**[١].

فإذا صرف العبد ولو نوعًا واحدًا من أنواع العبادة كان مشركاً بالله ظالما لنفسه ظلمًا كبيرًا.

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: **«مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قَرِّبْ. قال ليس عندي شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذبابًا. فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله ، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة»**[٢].

* قال ابن القيم في "الفوائد" (١/١٢١): «يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به، وإن لم يأت بضدٍ وجودي من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأسًا فلم يوحّد الله فهو هالك، وإن لم يعبد معه غيره[٣]، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهي عنه» ا.هـ.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٢) رواه أحمد في "الزهد" برقم (٢٢)، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢٠٣/١٠) عن طارق بن شهاب عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً.

(٣) كحال الملاحدة والصابئة والفلاسفة العقلانيين.

وقد توعد الله كل من أشرك به أن يبطل أعماله مهما بلغت ويجزيه جهنم جزاءً وفاقاً، ولو كان من الملائكة أو النبيين -عليهم السلام- وحاشاهم ذلك. قال تعالى -عن ملائكته-: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

ولما ذكر الله الأنبياء والرسل وأثنى عليهم بالحكم والنبوة والكتاب في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٤- ٨٨]. قال بعدها مبيناً عظم وخطر الشرك بالله ولو كان ممن أُثني عليهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

* قال ابن كثير(٣/٢٩٩): وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزُّخرُف:٨١] ا.هـ

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر:٦٤- ٦٦].

والمعنى: ﴿قُلْ﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ -أي هذا الأمر

صدر من جهلكم-، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصًا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾[الزُّمَر:٦٥]. من جميع الأنبياء. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر:٦٥]. وعملك، مفرد مضاف، يعم كل عمل.

فدلت الآية: أنه في نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٦٥]. دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾[الزُّمَر:٦٦]. لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ -أي أخلص له العبادة وحده لا شريك له-، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزُّمَر:٦٦]. لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب

جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

* قال الشيخ السعدي ص(٢٤٩) رحمه الله: «هذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ -أي ما ينبغي لي-، ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في

---

(١) ينظر تفسير السعدي ص (٧٢٩).

خطابه لربه، فلم يقل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لم أقل شيئًا من ذلك» وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ -أي ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له-، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ -أي المطلع على سرائرهم وضمائرهم-. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصراً، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾-أي فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة-، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.(الحكيم) حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن

الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]. والصادقون: هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩]. والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم، وثمرة أعمالهم الفاسدة. ا.هـ.

ويكفيك في الفضل إخبار النبي ﷺ أن لا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق»(١).

فمن وحد الله وأخلص العبادة لله وترك الشرك، فأعماله تكون مقبولة عند الله ولو كانت يسيرة، (وكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت أعماله وتمت، بل إن التوحيد هو الموجب لانبعاث الأعمال الصالحة -أي السبب الذي يدفع المؤمن إلى الأعمال الصالحة والإكثار منها-، والتقرب إلى الله بها. وهو يسهل على العبد فعل الخيرات وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه)(٢).

---

(١) البخاري برقم (٩)، ومسلم برقم (٥٧).
(٢) القول السديد ص (٢١).

ومن الفضائل: (العصمة من الفواحش).

ذلك أن الله يبعد عبده وينجيه من المعاصي إذا أخلص العبادة لله، قال تعالى مخبرًا عن حال نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٣، ٢٤].

❊ قال ابن القيم في الفوائد (١/ ٨١): «أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهي الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله شرك، وأن يدعى معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية القوة الشهوانية الزنا، ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. فالسوء العشق والفحشاء الزنا، وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة؛ فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما

أما الأول ففي قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣].

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض.

ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا وأعظم شركًا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى:٣٧].

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه وهذا هو التوحيد.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فهذا مخالفة القوة الغضبية فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله» ا.هـ.

وإن كان عند العبد معاصٍ وكبائر فإنها تحت مشيئة الله إن شاء غفرها الله له، وإن شاء عذبه بها.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرةً كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ، ويوم القيامة

وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي خص بها أهل الإيمان والتوحيد كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»**(١).

فقراب الأرض من الخطايا التي ليس فيها الذنب الأكبر وهو الشرك، مهما كانت على الإنسان، ولقي الله موحداً لا يشرك بالله شيئًا في عبادته ولا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته، كان هذا القراب الكثير من الخطايا موضع المغفرة، مع أنه يبعد أن يكون العبد موحداً لله لا يشرك به شيئًا ويلقى ربه بهذا القراب الكبير ولم تغفر له ذنوبه أولم يتب منها، وذلك لأن التوحيد من أعظم ما يعين على التخلص من الذنوب لاسيما الكبائر.

* قال ابن القيم رحمه الله معلقًا على معنى الحديث في "مدارج السالكين" (١/٣٣٦): «والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا، مصراً عليها، غير تائب منها، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع، والذل والخوف والرجاء

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن صحيح.

للرب تعالى» ا.هـ

وهذا بخلاف المشرك ،فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد ولا تفيده المصائب شيئًا، وما له يوم القيامة من شافع ولا صديق حميم.

روى الإمام أحمد عن يزيد بن بانبوس عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدواوين عند الله ثلاثة ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله.

فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢].

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صلاة يوم تركها، أو صوم تركه؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص لا محاله»(١).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئًا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها** ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾**»**(٢).

۞۞۞

(١) المسند برقم (٢٦٠٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٥٤٢٥).

الفضل الرابع:
أن الله يعطي الموحد الحياة الطيبة والأنس والعيش الرغيد والبعد عن الحزن والأسى، والعصمة في نفسه وماله

ودليل هذا الفضل: قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

فهذا وعد من الله -ومن أوفى بعهده من الله- لمن جمع بين الإيمان الصادق الذي لا يخالطه شرك أو رياء وبين الأعمال الصالحة الموافقة لهدى النبي ﷺ ليحيينه حياة طيبة.

وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وتضرعه لربه عند كل سراء وضراء، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب، هذا في الدنيا وفي الآخرة يعطيه ربه أجره بأحسن المقامات، وأعلى الدرجات، في جنات النعيم.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه ربه بما اتاه»[1].

فالعمل الصالح ورأسه التوحيد، يحقق للمرء السعادة في الدنيا والآخرة، وطمأنينة في عيشه ورزقه، وهداية في قلبه، وانشراحًا وإقبالًا على العبادة، وعصمه لنفسه وماله وولده وعرضه.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٠٥٤)

♦ **فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد**، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر:٢٢]. فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه. قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وهي أن من انشرح صدره للإسلام -أي اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وأضاء بضوء اليقين فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير وطوعت له نفسه فعله متلذذاً به غير مستثقل؛ فإن هذا علامة على أن الله قد هداه و منّ عليه بالتوفيق وسلوك أقوم طريق، وعلى العكس من ذلك فإن علامة من يرد أن يضله أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا -أي في غاية الضيق- عن الإيمان والعلم واليقين قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير ولا ينشرح قلبه؛ لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصَّعَّد إلى السماء -أي كأنه يكلف الصعود إلى السماء- الذي لا حيله له فيه.

روى عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: «فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه».

وقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر ﷺ: «كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير»[(١)].

* قال ابن القيم في "الفوائد" (ص٢٠٣): «والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك. والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم» ا.هـ.

بعني قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٤- ٢٦].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

حتى عند نزول المصائب على الموحد سواء في نفسه أو ماله أو ولده

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٦).

تجده مطمئن القلب ثابت الجأش لا جزع ولا نياحة ولا لطم، بل يعلم أن هذا حصل بقدر الله فيسلم أمره لله، فتحصل له الهداية ويحصل له الأجر العظيم جزاء صبره، مع ما يدخره الله له يوم القيامة من الثواب. فالتوحيد يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام.

فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة، ومعونة من الله وتأييد.

فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا، وأرضى الناس بقضاء الله، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك بسبب إيمانهم وتوحيدهم لربهم سبحانه وتعالى.

روى ابن جرير في "تفسيره" (٢٣/ ٤٢١) عن الاعمش عن أبي ظبيان قال: «كنا عند علقمة فقرى عنده هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]. فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم».

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التّوحيد، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض توحيده»[1].

وروى مسلم عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا**

---

(١) ينظر: السنة لعبدالله بن أحمد (٢/ ٤٢٢)، تجريد التوحيد للمقريزي (١/ ٤٠).

المؤمن: فإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له»[١].

فهذا حال كل إنسان فإنّ قضاء الله وقدره يكون بين أمرين: إما سراء، وإما ضراء. أما المؤمن إن أصابته الضراء صبر على أقدار الله، وانتظر الفرج من الله، واحتسب الأجر على الله؛ فكان ذلك خيراً له فنال بهذا أجر الصابرين. وإن أصابته سراء من نعمة دينية كالعلم والعمل الصالح أو نعمة دنيوية كالمال والبنين والأهل شكر الله، وذلك بالقيام بطاعة الله، فيشكر الله فيكون خيرًا له، ويكون عليه نعمتان نعمة الدين ونعمة الدنيا.

فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى، فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيمانا.

وأما الكافر فهو على شر حال -والعياذ بالله- إن أصابته ضراء لم يصبر، بل تضجر ودعا بالويل والثبور، وسب الدهر، وسب الزمن، بل وربما سب الله ﷻ -والعياذ بالله-. وإن أصابته سراء لم يشكر الله، فكانت هذه السراء عقابًا عليه في الآخرة[٢].

ولا يزيد الشرك ووسائله وأسبابه المشرك إلا ضعفًا ووهنًا ومرضًا في قلبه وعقله وبدنه.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) شرح رياض الصالحين لشيخنا ابن عثيمين (١ / ١٩٨)

عن عمران بن حصين: **«أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفْر[١]. فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة. فقال انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا»**[٢].

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: **«من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»**[٣]. وفي رواية: **«من تعلق تميمة فقد أشرك»**[٤].

فهذه كلها دعوات على المشرك بالوهن والضعف وعدم الراحة وعدم إتمام أمره كله، بل والخسارة وعدم الفلاح، بل هو في نقص دائم، وخوف قائم، فهو أبعد الناس عن السعادة، وأيئسهم منها، وأقربهم بل وألصقهم بالشقاوة، قال تعالى مبيناً حال من أعرض عن شرعه وهديه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤].

قال بعض المفسرين: المعيشة الضنك في الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل -نعوذ بالله من ذلك-.

أما المؤمن فهو في كل أحواله وفي كل منزلة من منازل سيره إلى الله منشرح الصدر، آنساً بخلوته بربه ولو كان أفقر خلق الله، فإنه بخلوته

---

(١) نوع من النحاس أصفر

(٢) رواه أحمد بسند لا بأس به.

(٣) المسند برقم (١٧٤٠٤).

(٤) المسند برقم (١٧٤٢٢).

بربه ومناجاته وتضرعه يجد نفسه أغنى الناس بالله، ويرى نفسه أنه يسير إلى الله ولا يقطعه شيء عن ربه، بل يطمع بلقاء ربه،

قال ابن القيّم رحمه الله في "طريق الهجرتين" (١/ ٩): (الفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً. والفقر الثاني فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أَحدهما معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أَنتجتا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التامّ والحكمة عرف نفسه بالجهل... فأَكمل الخلق أكملهم عبودية وأَعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إِلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: **«أَصلح لي شأني كله، ولا تكلني إِلى نفسى طرفة عين ولا إِلى أَحد من خلقك»**، وكان يدعو: **«يا مقلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك»**. يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عَزَّ وجَلَّ لا يملك منه شيئاً، وأَن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، فضرورته ﷺ إِلى ربه وفاقته إِليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أَمر إِنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر

الوعاءِ، ولهذا كان أَقرَبَ الخلق إلى الله وسيلة وأَعظمهم عنده جاهاً وأَرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عز وجل، وكان يقول لهم: **«أيها الناس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد»**، وكان يقول: **«لا تُطْروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»**) ا.هـ.

فالتوحيد الخالص لله من أعظم ما يبيّن لك حاجتك لربك، واستغناءه سبحانه عن كل أحد، كما أنّ التوحيد من أعظم الأسباب للسلامة والنجاة من الكروب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله، وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة، وهذه العوائق لا تتبين للعبد إلا حين يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس[٢] بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها».

* ومن آثار هذه الحياة الطيبة على الموحد، أن توحيده يكسبه

---

(١) الفوائد (١/ ١٥٤).

(٢) في المطبوع (ويحسن).

الألقاب الحسنة الشرعية، **مثل:** (المؤمن، الموحد، المتقي، العابد، ...) بخلاف المشرك الذي يوصف بأوصاف تنفر منها الفطر السليمة والنفوس المستقيمة: (كالمشرك، المتبع لهواه، المبتدع، الفاسق، الظالم، الكافر، المجرم، الفاجر).

❋ ومن آثار هذه الحياة الطيبة للموحد أن صلاح قلبه بالتوحيد يسري إلى سائر جسده، وإلى وجهه، فيكون وجهه أحسن الوجوه، وكلما كبر وهو على التوحيد والأعمال الصالحة ازداد حسناً، والمشرك والمبتدع على عكس ذلك.

❋ قال شيخ الاسلام ابن تيمية ﷺ في "الاستقامة" (١/ ٣٦٤): «وهذا الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه، والقبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه، ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة، فكلما كثر البر والتقوى قوى الحسن والجمال، وكلما قوى الإثم والعدوان قوى القبح والشين حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح، فكم ممن لم تكن صورته حسنة ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه حتى ظهر ذلك على صورته.

ولهذا ظهر ذلك ظهورًا بينًا عند الإصرار على القبائح في آخر العمر عند قرب الموت فنرى وجوه أهل السنة والطاعة كلما كبروا ازداد حسنها وبهاؤها، حتى يكون أحدهم في كبره أحسن وأجمل منه في صغره، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها

وشينها حتى لا يستطيع النظر إليها من كان منبهرًا بها في حال الصغر لجمال صورتها، وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره».

* ومن آثار هذا الفضل المبارك أن الناس يقومون بحق الموحد ويقضون حاجته ويعينونه على نوائب الدهر، فمن كان موحداً لله نفعه توحيده في الدنيا فهيأ الله له الأسباب وقيض له من الناس من يحميه ويعينه على أمره.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه»**(١).

أي من سألكم بالله أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم، كقوله: بالله عليك أن تدفع عني شر فلان أو شركَ، أعوذ بالله من شرك أو شر فلان ونحو ذلك، فأعيذوه -أي امنعوه مما استعاذ منه- وكفو عنه لتعظيم اسم الله تعالى، ولهذا لما قالت الجونية(٢) -لما دخل عليها النبي ﷺ- أعوذ بالله منك قال: **«لقد عذت بمعاذ، ألحقي بأهلك»**(٣)، إعظامًا وإجلالًا لله تعالى أن يسأل به في شيء، ولا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه، بل أمر النبي ﷺ -زيادة في كرمه وحسن معشره- «أبا أُسيد، أن يعطيها رازقيتين»(٤). ولهذا أمر النبي ﷺ بإبرار القسم(٥)،

---

(١) رواه أبوداود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧) بسند صحيح، وزاد: «ومن استجار بالله فأجيروه».

(٢) نسبة إلى بني الجون قبيلة من الإزد.

(٣) رواه البخاري برقم (٥٢٥٥).

(٤) **رازقتين:** مثنى رازقة: وهي ثياب بيض طوال من الكتان.

(٥) رواه البخاري برقم (٢٤٤٥).

ولا يبر قسم إلا من حلف بالله، فالموحد ما استعاذ ولا سأل إلا بالله، فكان حقًا على المؤمنين إعانته وإعطاءه حاجته، والشفقة عليه والرحمة به.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في "مجموع الفتاوي" (٢٨/ ١٩٠) فصل: في الولاية والعداوة: «فإن المؤمنين أولياء الله وبعضهم أولياء بعض، والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين. وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين وبيَّن أن ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبيَّن أن ذلك منتف في حق المؤمنين وبيَّن حال المنافقين في موالاة الكافرين.

فأما موالاة المؤمنين، فكثيرة: كقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة:٥٥]. إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٢]. إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:٧٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]. ا.هـ.



الفضل الخامس:
أن التوحيد سبب للخيرات والبركات وكثرة الأرزاق ونزول الأمطار وجري الأنهار وإنبات الزرع والشجر

ودليل هذا الفضل: قوله تعالى حاكيًا قول الداعية الأول للتوحيد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

فحرص عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتركوا ما هم عليه من الذنوب والشرك وعبادة الأصنام، ثم بيَّن لهم أنهم إن تركوا هذه الأمور وعبدوا الله، فإن الله يعطيهم أموراً منها:

١- مغفرة الذنوب، فيغفر لهم شركهم.

٢- ما يحصل لهم من الخير العاجل من إنزال المطر متناوبًا يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد للعباد.

٣- ويرزقهم ويكثر لهم أموالهم وأولادهم.

٤- ويرزقهم البساتين الجميلة المثمرة ويجري لها من الأنهار ما تسقي به هذه البساتين.

كل هذا الفضل وغيره يحصل لهم إن هم قاموا بما أمرهم به، وهو توحيد الله ونبذ الشرك، كما قال في أول السورة: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح:٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال واستعملوا تقوى الله ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرّم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأوفر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا، فكانت النتيجة والعاقبة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم. كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يدعو قومه إلى التوحيد والإيمان: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٦].

ولا شك أن من أقام التوراة والإنجيل، والإيمان بما دعيا إليه مما هو حق لم يحرف، آمن بمحمد ﷺ وبالقرآن ودخل في الإسلام، فإن أعظم ما

يطلب من اليهود والنصارى هو قيامهم بحق الله، وهو الإسلام وتوحيدهم لربهم سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

فخيرات الدنيا والآخرة تنال بالعبودية لله وتوحيده والتقرب إليه بالطاعات ونبذ كل ما يعبد من دون الله، فإن من عبد غير الله واتبع خطوات الشيطان كان أفقر الناس إيمانًا وأسوأهم مآلاً ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كتب له، وكانت عليه وبالاً. قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

ولذا تجد أن الشيطان يفقر أولئك القوم الذين يتقربون إلى قبور الأولياء والصالحين بالصدقات والنذور، يهدون لتلك القبور أموالًا طائلة من ذهب وفضة وطعام بل وفاكهة، وربما استدان أحدهم وأربى لأجل صنم أو وثن أو حجر أو ترابِ قبرٍ مزعومٍ يضعها عنده. تذهب أموالهم هباءً غير مخلوفة عليهم لا بأجر ولا بخلفٍ حسن، نسأل الله السلامة والهدية، والله المستعان وحده.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

ولذا كان من الشرك نسبة الأمطار والخيرات لغير الله، كالاستسقاء بالأنواء –أي مواقع النجوم– بجعلها سبباً لنزول الأمطار، فإنه باب من أبواب الشرك الخفي، وضده باب من أبواب الشكر.

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: **صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»**[(١)].

شبهة وجوابها:

فإن قال قائل: إننا نرى بلاد الكفر والشرك هي أغنى بلاد العالم وأخصبها أرضاً وأغزرها مطراً ويتنعمون بالخيرات والأرزاق.

فيقال: الجواب عن هذه الشبهة من وجهين:

أولاً: أن هذا استدراج من الله لهم ليزدادوا كفرًا وإثمًا، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، يعجل لهم النعيم لئلا يجعل لهم نصيباً من النعيم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٦، ١٧٨].

أي ولا يظن الذين كفروا بربهم ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم، ومحبة منا لهم كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر

---

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

يريده الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ فالله تعالى يملي - أي يمهل - للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر(١).

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦].

والمعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦]. قال: مُكِرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وروى الإمام أحمد عن مرة الهمداني حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي**

---

(١) تفسير السعدي (١٥٨).

الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه»(١).

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢](٢).

وثانيًا: إن أعطاهم الله نعيمًا في الدنيا، فإنه نعيم ظاهر وزائل، فإن الله يرسل على هذا النعيم ما يكدر صفوه، ويقطع لذته، من الحروب بينهم أو الشقاء فيهم، أو تشتت الأسر وما يحصل لها من آثار سيئة على أفرادها، وما يعيشه الكفار من الهم والغم والحزن والأمراض المهلكة كاف في ذهاب هذا النعيم الذي يجدونه، ولذا نجد أن أكثر الناس انتحارًا في العالم هم الكفار؛ لأنهم سلبوا هذا النعيم. كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[طه:١٢٤].

لأن النعيم إذا لم يكن محفوفاً باللذة والأنس والأمان فليس بنعيم، بل هذه اللذة هي متاع دنيوي فقط، فإن النعيم والخير إذا لم يكن صاحبه قائم بشرع الله، فإن هذا النعيم هو متاع الحياة الدنيا، وليس بنعيم، فما بالك برجل يأكل ويشرب ويمشي ويضحك، ولكن لعنة الله معه أينما حل وفي أي مكان نزل ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب آية: ٦١]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤].

---

(١) المسند برقم (٣٦٧٢) وصححه الألباني في "الصحيحة"(٢٧١٤)

(٢) رواه البخاري برقم(٤٦٨٦)، ومسلم برقم (٢٥٨٣).

الفضل السادس:
أن التوحيد سبب لشفاعة المؤمنين للميت

ودليل هذا الفضل: ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه»**[1].

و أخرج أيضاً عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«لا يموت أحد من المسلمين فيصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا مائة فما فوقها فيشفعوا له ألا شفعوا فيه»**[2].

فهذه الشفاعة شفاعة دنيوية من جهة الشافع وأخروية من جهة المشفوع له، ويشترط في الشفعاء أن يكونوا من أهل التوحيد، وأن يكون هؤلاء الجمع كلهم من أهل الإيمان ممن تقبل شفاعتهم.

وقوله: **«إلا شفعهم الله فيه»** -أي قبل الله شفاعتهم لهذا الميت وقبل دعائهم-، ويحصل لهذا الميت إن شاء الله ما دعوا به له من المغفرة والرحمة والمنزلة الحسنة عند الله، والتجاوز عن السيئات وإبداله داراً خيراً من داره وأهلاً خير من أهله وزوجاً خيراً من زوجه.

عن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: **«اللّهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج**

---

(١) صحيح مسلم برقم (٩٤٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٩٤٧).

والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خير من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار». قال عوف: حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت[1].

وهذا الفضل هو من فضائل التوحيد على المجتمع المسلم؛ لأن المجتمع إذا كان موحداً نفع بعضه بعضاً.

وانظر إلى القيد الذي في حديث ابن عباس فقال: لا يشركون بالله شيئاَ، -أي موحدون لا يعبدون إلا الله- فإذا كان هذا حالهم فدعاءهم ينفع بإذن الله.

أما إن كان الميت مشركًا -والعياذ بالله- فإن دعائهم له لا يقبل؛ لأن الله لا يقبل للمشرك شفاعة من أحد؛ لأنه مشرك بربه قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزُّمَر:٧]. وقال تعالى ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثر:٤٨].

وهذه الشفاعة هي الشفاعة المنفية التي نفاها القرآن الكريم؛ لأنها لم تجمع شروط الشفاعة المثبتة النافعة وهي:

١- الإذن للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

٢- الرضى عن المشفوع له وهو المؤمن الموحد كما قال تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) رواه مسلم (٩٦٣).

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٦].

فالميت إن كان معلوم الحال أنه مات على الكفر، أو على نفاق يخرج من الملة فلا يحل الدعاء له ولا الصلاة عليه قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤].

وهذا عم النبي ﷺ أبو طالب الذي كان يناصر النبي ﷺ ويحميه من أذى كفار مكة لما مات على الكفر قال النبي ﷺ كما في الصحيحين: **«لأستغفرن لك مالم أنه عنك»** لكمال شفقته ومجازاته على المعروف الذي فعله معه ورحمة منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأنزل الله قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣]. فأمسك عن الاستغفار له.

وهو في هذا المقام مقتدٍ بأبيه نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما وعد أباه أن يستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤].

وجرت العادة أن الذي يقوم بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه، وحمل جنازته ودفنه هم أهله وأقاربه وجيران بيته وجماعة مسجده ومحبوه مما يجعل المسلم يحرص على تعليمهم التوحيد حتى إن مات وصلوا عليه دعوا له وهم لا يشركون بالله شيئًا.



الفضل السابع:
أن أهل التوحيد أحق الناس وأسعد الناس بالشفاعة يوم القيامة

ودليل هذا الفضل: ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»[1].

وأهل التوحيد هم من يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله ويعملون بمقتضاها ويعتقدون معناها في قلوبهم ويعملون بجوارحهم، فهؤلاء هم أحق الناس بالشفاعة يوم القيامة وأسعدهم بها، فيتحقق بذلك وعد الله لهم ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

أي يأذن للشافع أن يشفع، فليس كل أحد من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين له الحق بالشفاعة، بل حتى يأذن له ربه؛ لأن هناك صنفًا من الناس لا تقبل شفاعتهم ولا شهادتهم عند الله، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء**

---

(١) رواه البخاري برقم (٩٩).

يوم القيامة»[١].

* قال الإمام النووي رحمه الله في "شرح مسلم": **«لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار...»**[٢].

فلا تصح شفاعة هؤلاء اللاعنين لأولئك الميتين -والله أعلم-.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

فجملة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾: على أحد الوجهين في إعرابها معطوفة على جملة ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ -أي وإلا من قال صوابا-، فعلم أن من لا يقول الصواب لا يُؤذن له.

وإطلاق صفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذنْ الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته؛ لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة واستغفار[٣].

وهذا هو الشرط الأول للشفاعة المثبتة: الأذن للشافع بالشفاعة

والشرط الثاني: أن يرضى الله عن المشفوع له، وهو المؤمن الموحد الذي عنده ذنوب يستحق بها العذاب فيأذن الله جل في علاه بالشفاعة له فتنفعه الشفاعة بإذن الله، ويسلم من العذاب بإذنه.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٩٨)

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤٩)، وقال فيه: «اللعانون ، بصيغة التكثير ولم يقل لاعنا واللاعنون؛ لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر منه اللعن لا لمرة ونحوها، ولأنه يخرج منه أيضًا اللعن المباح، وهو الذي ورد الشرع به وهو لعنة الله على الظالمين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الواصلة والواشمة وشارب الخمر وآكل الربا».

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/ ٥٣).

كما في الآية السابقة: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه:١٠٩].

والشفاعة المثبتة يوم القيامة على ستة أنواع:

١. الشفاعة العظمى:

وهي المقام المحمود، وهي شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف إذا طال الوقوف على أهل الموقف فيشفع لهم النبي ﷺ بعد أن يعتذر الأنبياء، كما في الحديث الطويل الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «**فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع**»[1]. وهذه الشفاعة أجمعت الأمة على إثباتها حتى المعتزلة والخوارج.

وفي هذه الشفاعة يظهر فيها تفضيل محمد ﷺ على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم، وقد ظهر فضله في هذا المقام عليهم.

❋ قال القرطبي: ولو لم يكن في ذلك إلا الفرق بين من يقول نفسي نفسي، وبين من يقول أمتي أمتي لكان كافيًا.

---

(١) البخاري برقم(٣٣٤٠) ومسلم برقم (١٩٣).

٢. شفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة:

فبعد أن يحاسب أهل الموقف ويتوجه المؤمنون إلى الجنة يجتمعون عند الباب فلا يؤذن لهم بالدخول حتى يشفع لهم النبي ﷺ، كما جاء في الحديث: «**أنا أول شفيع في الجنة**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «..**فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وحمير -أو كما بين مكة وبصرى-**»(٢).

٣. شفاعته ﷺ في بعض أهل الجنة برفعة درجاتهم في الجنة:

فعن أم سلمة أنه ﷺ دعا لأبي سلمة لما قبض، فقال: «اللّٰهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين»(٣).

٤. شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب بأن يخفف عنه العذاب:

فعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ ذكر عمه أبا طالب، فقال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي به دماغه**»(٤).

وفي رواية لهما أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله،

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٦).
(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧١٢).
(٣) صحيح مسلم برقم (٩٢٠).
(٤) البخاري برقم (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩).

هل نفعت أبا طالب بشيءٍ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نعم، هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**».

واستُشكِل قوله ﷺ: «**تنفعه شفاعتي**»، بآية: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾:

وأجيب: بأنه خُص بها، ولذلك عدوه في خصائص النبي ﷺ وقيل معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث والمراد بها في الآية الإخراج من النار، وفي الحديث المنفعة بالتخفيف.

وبهذا الجواب جزم القرطبي في التذكرة (١/ ٢٨٦) فقال: «إن شفاعته ﷺ لعمه لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة»[١].

٥. شفاعته ﷺ فيمن استحق النار من أهل التوحيد ألا يدخلها:

وقد عد الحافظ ابن حجر رحمه الله حديثاً مستنداً لها[٢][٣]، وفيه: «**ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم**». وفي رواية أخرى: «**...ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللّهم سلم سلم...**»[٤]. فلو لم يكن لدعائه في ذلك الموقف فائدة – وهي نجاتهم من النار– لم يكن للدعاء هناك حاجة.

---

(١) وانظر فتح الباري (١١/ ٥٢٦).

(٢) قال ابن قيم الجوزية –رحمة الله تعالى– (تهذيب السنن مع عون المعبود١٣/٥٥): وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه .

(٣) انظر: صحيح مسلم رقم (١٩٥)

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٢).

والذي يظهر من الحديث -والله أعلم- أن النبي ﷺ يشفع للبعض ممن لم يسعفه عمله فيقصر به ويبطئ به المسير -من أهل الإيمان- فيدعو النبي ﷺ ربه ويتشفع لهم بقوله: «**اللّهم سلم سلم**».

فإن كان ذاك العبد من أهل النجاة استجاب الله لنبيه وشفعه فيه، وإلا فلعله ممن يخرج بشفاعة غير النبي ﷺ، أو يخرج بشفاعته بعد أن يسقط في النار، أو أن يكون من أهل القبضة -والله اعلم-.

٦. شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرج من النار:

فعن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين**» [أخرجه البخاري].

ويأتي مزيد بيان لهذا في (الفصل الثاني عشر).

والشفاعتان الأخيرتان ليستا خاصتين بالنبي ﷺ، ولكنه هو المقدم فيها ثم تكون بعده للأنبياء والأولياء الصالحين، والأفراط -وهم الأولاد الصغار- والملائكة.

فقد أخرج مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي رضي الله عنه وفيه: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا ارحم الراحمين...**»[1].

واعلم -أخي المسلم- أن الذي أثبتته الآيات القرآنية والسنن النبوية، ودرج عليه السلف الصالح، والصدر الأول من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان من أئمة التفسير والحديث والسنة أنّ العصاة من

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٠٢).

أهل التوحيد على ثلاث طبقات:

الأولى: قوم رجحت حسناتهم بسيئاتهم، فأولئك يدخلون الجنة ولا تمسهم النار أبداً.

الثانية: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وهؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين ذكر الله تعالى أنهم يقفون بين الجنة والنار ما شاء الله أن يقفوا، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة، كما قال الله تعالى بعد أن أخبر بدخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وتناديهم فيها، قال سبحانه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦] -أي إلى الآن- لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها.

* قال الحسن البصري: لما تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم.

الطبقة الثالثة: قوم لقوا الله تعالى مصرين على كبائر الإثم والفواحش ومعهم أصل التوحيد والإيمان، فرجحت سيئاتهم بحسناتهم، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بقدر ذنوبهم، ومنهم من تأخذه إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، حتى إن منهم من لم يحرم الله منه على النار إلا أثر السجود، وهذه الطبقة هم الذين يأذن الله تعالى في الشفاعة فيهم لنبينا محمد ﷺ ولغيره من بعده من الأنبياء والأولياء والملائكة ومن شاء الله أن يكرمه،

فيحد لهم حداً فيخرجونهم، ثم يحد لهم حداً فيخرجونهم، وهكذا فيخرجون من كان في قلبه وزن دينار من خير، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار من خير، ثم من كان في قلبه وزن برة من خير، إلى أن يخرجوا منها من في قلبه وزن ذرة من خير، إلى أدنى من مثقال ذرة إلى أن يقول الشفعاء: ربنا لم نذر فيها خيرا»[(١)](٢).

ولن يخلد في النار أحد ممن مات على التوحيد ولو عمل -أي عمل- ولكن كل من كان منهم أعظم إيمانًا وأخف ذنبًا كان أخف عذابًا في النار، وأقل مكثاً فيها وأسرع خروجًا منها، وكل من كان أعظم ذنبًا وأضعف إيمانًا كان بضد ذلك، والأحاديث في هذا الباب لا تحصى كثرة وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: **«من قال: لا إله إلا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه»**(٣).

ومن تمام رحمة النبي ﷺ ورأفته وشفقته بأمته واهتمامه بأحوالهم وشؤونهم أخّر ﷺ دعوته المستجابة إلى يوم القيامة شفاعة لهم، ذلك أنه لكل نبي دعوة مستجابة لأمته أو عليهم.

روى أحمد بسند حسن عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: **«أتاني آتٍ من ربي، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة»**، فقال معاذ وأبو مسعود: ادع الله أن

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (١/ ١٦٧) رقم (٣٠٢).
(٢) ينظر: أعلام السنة المنشورة للحكمي (١/١١٧).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠١) برقم (٩٦).

يجعلنا في شفاعتك، فقال: **«أنتم ومن مات لا يشرك بالله شيئاً»**[١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا»**.[٢]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «يؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجب به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرجون منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته»[٣].

أما المشركون فلا أحد يشفع لهم ولا تقبل شفاعة أحد فيهم. قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدَّثر:٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

فلا يشفع لهم ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا يشفع لهم الصالحون، بل حتى من كانوا يظنون بهم الشفاعة والنفع في الدنيا من الاحجار والاشجار والقبور وأصحابها لا يشفعون لهم، لكي يعلم كل أحد أن أعظم جرم يرتكبه المرء في هذه الحياة هو الشرك بالله الذي لا يبقى معه

(١) المسند برقم (١٩٦١٨).

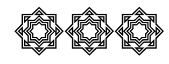
(٢) انظر: صحيح البخاري رقم (٦٣٠٤) وصحيح مسلم برقم (٣٣٨)

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٥).

خير في الدنيا والآخرة، فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]. فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه ندًا، أو شفيعًا يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له، ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلًا وضلالًا، فيقولون وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض وإنها تحيي وتميت، وإنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة، كما هو حال كثير من أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام، فنسأل الله السلامة والعافية.



الفضل الثامن:
أن التوحيد سبب للنجاة من الكروب، فأما الكفار فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، وأما المؤمنون فينجيهم من كرب الدنيا والآخرة

قال تعالى عن المشركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

قال مقاتل: «والدين بمعنى التوحيد».

ومعنى الآية: إذا انقطع رجاؤهم من الحياة، وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك دعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ -أي فاجؤوا المعاودة إلى الشرك-، ودعوا غير الله سبحانه[1].

قال ابن كثير: وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: «أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارّاً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضًا، اللّهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفًا رحيما، وكان كذلك» ا.هـ[2].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٥).

(٢) المصدر السابق.

ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق لم ينفعه إيمانه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢]. وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله.

روى الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وقد أخذت حالا من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة»**[1].

وأما أولياؤه فينجيهم بالتوحيد من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع إليه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فنجاه الله من تلك الظلمات.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

---

(١) المسند (٤/ ٢٩٢)، وفي النهاية لابن الأثير (١/ ٤٦٤)، (الحال: الطين الأسود كالحمأة. ومنه الحديث في صفة الكوثر «حَالُهُ المِسْكُ» أَيْ طِينُه).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر -حوتًا يشق البحار-، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحمًا، ولا تهشم له عظمًا؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجنا»**[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي: حدثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك -ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ-: **«أن يونس النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: اللَّهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟. قال: نعم. قالوا: يا رب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء»**[٢].

وأخرج أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص سمعت رسول الله ﷺ قال: **«دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»**[٣].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٦٦).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٤).
(٣) المسند برقم (١٤٦٢) سنن الترمذي برقم (٣٥٠٥).

قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (٤/ ١٩٠) عن هذه الدعوة: «إن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه، فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد والتنزيه والعبودية والاعتراف».

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**[1].

وقال تعالى عن عبده ونبيه أيوب عليه السلام لما أصابه الضر: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

قال ابن القيم رحمه الله في "الفوائد" (١/ ٢٠١): «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته، وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره».

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٩٥)، ومسلم برقم (٢٣٧٦).

وقال تعالى عن عبده ونبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فجمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء. ا.هـ.

وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا، وما أعد لهم في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥٢].

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣، ١٤].

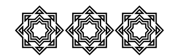
وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

فأخبر الله سبحانه وتعالى: أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله

وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات. هذه سنة الله في عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يُلقِي في الكروب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»** [متفق عليه].

♦ فلو تأملت -أخي المسلم- هذا الدعاء وجدت أن جميع كلماته، كلمات إيمان وتوحيد وإخلاص لله عز وجل، وبعد عن الشرك كله كبيره وصغيره، وفي هذا أبين دلالة على أن أعظم علاج للكرب هو تجديد الإيمان وترديد كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فإنه ما زالت عن العبد شدة، ولا ارتفع عنه هم وكرب بمثل توحيد الله وإخلاص الدين له؛ فإن القلب عندما يعمر بالتوحيد والإخلاص، ويشغل بهذا الأمر العظيم الذي هو أعظم الأمور وأجلها على الإطلاق، تذهب عنه الكربات، وتزول عنه الشدائد والغموم، ويسعد غاية السعادة[1].



(١) فقه الأدعية والأذكار للشيخ عبدالرزاق البدر (٣/١٨١).

الفضل التاسع:
أن التوحيد سبب للنعيم والسرور والحبور للموحد في قبره

فإن الناس يفتنون في قبورهم ويسألون ثلاثة أسئلة، **من ربك؟ من نبيك؟ مادينك؟**.

فالموحد هو من يوفقه الله ويثبته للقول الحق، والإجابة الصحيحة بخلاف الكافر والمنافق.

دليل ذلك: قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثًا.

ثم قال: -وذكر الحديث- وفيه: قال: «فتعاد روحه -أي المؤمن في جسده- فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

ثم ذكر حال المنافق والكافر، وفيه: «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه

يجيئ بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة»[١].

فالقبر أول منازل الآخرة فإن كان يسيرًا كان ما بعده أيسر، وإن كان عسيراً -والعياذ بالله- كان ما بعده أشد.

♦ **وصدق القائل:**

والقبر روضة من الجنان ... أو حفرة من حفر النيران

إن يك خيرا فالذي من بعده ... أفضل عند ربنا لعبده

وإن يكن شرا فبعده أشد ... ويل لعبد عن سبيل الله صد

فمن مات وهو يشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ فقد تشفع له من عذاب القبر.

فقد صح في الحديث المرفوع: **«من دخل القبر بلا إله إلا الله خلصه الله من النار»**[٢].

وكلمة التوحيد -لا إله إلا الله- هي الأمان من وحشة القبور وهول الحشر.

قال النبي ﷺ: **«ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله وقد قاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»**[٣].

قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام -هو

(١) المسند(٤/ ٢٨٧) وأخرجه أبو داود (٢/ ٢٨١) وغيرهما.
(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٨٨٤) من حديث زيد بن خالد.
(٣) رواه ابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٨٢)، وفي سنده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

ابن يوسف- عن عبد الله بن بحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضي الله عنه قال: **«كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه، فقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»**(١).

والموحد لله يعطى في قبره من المكرمات ما يؤنسه في قبره، ويبعد عنه الوحشة والغربة فهو يُنعم في قبره نعيم الروح والجسد، ويوسع له في قبره مد بصره، وينور له في قبره، ويفرش له فراش من فرش الجنة، ويلبس وهو في قبره لباس أهل الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من ريحها وروحها ما يتنعم به، وينام في قبره نوم العروس، وتحف به أعماله حتى لا يُؤذى.

روى الإمام أحمد: حدثنا حجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء -يعني بنت الصديق رضي الله عنها، تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت: قال: **«إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنًا أحف به عمله: الصلاة والصيام، قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»**(٢).

فإن حصل له في قبره ضغط وخوف كان ذلك تكفيراً لخطاياه.

قال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (٧/ ٥٠١) لما ذكر أسباب مغفرة الذنوب: قال: «السبب الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة، فإن هذا مما يكفر به الخطايا» ا.هـ.

---

(١) انفرد به أبوداود (٣/٢١٥) وصححه الألباني.

(٢) المسند برقم (٢٦٩٧٦) والطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٨١).

ونقل ابن القيم في "الجواب الكافي" ص (٥٤): عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «**إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القبر والقلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق**» ا.هـ.

ومن كرم الله لعبده الموحد أن يحفظه ويؤيده بملك يحوطه ويحفظه في حياته وفي قبره.

قال ابن القيم في "الجواب الكافي" ص (١٠٧): ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرّهم، فثبته وعلمه، وقوّى جنانه، وأيده الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

فيقول الملك عند الموت: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويَعِدُه بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعًا وموقوفًا: **«إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالحق»**.

وعلى قدر تنعم المرء بتوحيد الله في الدنيا وإخلاص العبادة لله وحده يكون نعيمه في قبره، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذاباً، وسجنًا وانطلاقًا.

وربما جُمِعَ في القبر لعبد واحد نعيم وعذاب، أو ينعم هذا ويعذب هذا إذا دفن رجلان في قبر.

وذكر ابن القيم في "بدائع الفوائد" (١٣١/٣) فائدة فقال: «فائدة: قال جماعة من الناس إذا ماتت نصرانية في بطنها جنين مسلم نزل ذلك القبر نعيم وعذاب، فالنعيم للابن والعذاب للأم، ولا بُعدَ فيما قالته كما لو دفن في قبر واحد مؤمن وفاجر، فإنه يجتمع في القبر النعيم والعذاب» ا.هـ.

ولذا يشرع لزائر المقابر أن يستشعر هذه الأمور التي تحصل للأموات في قبورهم، فإن استشعار ذلك مما يجعل المسلم يتذكر ويعتبر لآخرته، وهذا هو المقصود من زيارة المقابر للحي أن يتعظ ويعتبر ويستعد للموت وللحساب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة»** [رواه مسلم].

فهذه الزيارة هي التي تنفع في تذكر الموت، وتشرع ولو كان المقبور كافراً، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين(١).



(١) ينظر: قاعدة عظيمة في التوسل والوسيلة (١/ ٣٤) لشيخ الاسلام ابن تيمية.

الفضل العاشر:
أن من حقق التوحيد يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب

وهذا الفضل لطائفة من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب. فلا يدرون ما الحساب!! يدخلون الجنة، لا يحاسبون، ولا يعذبون، بل أمرهم من الموقف إلى الجنة بدون حساب ولا عذاب، نسأل الله أن نكون منهم.

ونبينا محمد ﷺ هو أول من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وفي هذا عظيم كرم الله سبحانه لنبيه ﷺ، ولأمته زادها الله شرفاً وفضلاً.

روى مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول من يقرع»** -أي باب الجنة، وفيه أيضاً: **«أنا أول شفيع في الجنة»**[(١)].

وروى مسلم عن أنس أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»**[(٢)]. وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»**[(٣)].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«أتاني جبريل، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: يا رسول الله، وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»**[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (١٩٧).
(٢) صحيح مسلم (١٩٧).
(٣) رواه البخاري في مواضع من صحيحه: (٢٣٨، ٨٧٦، ٨٩٦، ٢٩٥٦). ومسلم: (٨٥٥).
(٤) سنن أبي داود برقم (٤٦٥٢).

روى ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، ورفع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه، ولكن أنظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله فقال: ما الذي تخوضون فيه، فأخبروه فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»** [رواه مسلم].

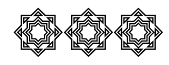
فإن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده فلا يسألون غيرَهم أن يرقيهم ولا يتطيرون -والطيرة نوع من الشرك- ويتوكلون على الله وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله.

❊ قال أهل العلم: **تحقيق التوحيد نوعان:**

١) **تحقيق واجب:** وهو تخليصه من الشرك والبدع وكبائر الذنوب.

ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩].

٢) **تحقيق مستحب:** وهو تخليص القلب من التعلق بالمخلوقين، وسؤال ما فيه مذلة ومهانة، وكذلك ترك ما فيه مضاهاة لله تعالى كالكي بالنار من غير حاجة.



الفضل الحادي عشر:
أن كلمة التوحيد ثقيلة في الميزان يوم القيامة وترجح على الأعمال السيئة

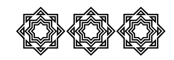
ويدل لذلك حديث البطاقة: فعن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا، يا رب، فيقول: ألك عذر، أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا، يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم»**[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "الزهد والورع والعبادة" (١/ ١٦٤): «ثقلت البطاقة وطاشت السجلات وذلك لعظم ما في قلبه من الإيمان واليقين، وإلا فلو كان كل من نطق بهذه الكلمة تكفر خطاياه لم يدخل النار من أهل الكبائر المؤمنين بل والمنافقين أحد، وهذا خلاف

(١) أخرجه الترمذي وحسنه (٢ / ١٠٦- ١٠٧)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢ / ٢١٣)، والحاكم (١ / ٦ ، ٥٢٩)، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم». ووافقه الذهبي. ووافقهما الألباني في الصحيحة (١/ ٢٦٢).

ما تواترت به الآيات والسنن، وكذلك حديث البغي، وإلا فليس كل من سقى كلبًا عطشانًا يغفر له، كما أنه قد يقترن بالسيئة من الاستخفاف والإصرار ما يعظمها فلهذا وجب التوقف في المعين، فلا يقطع بجنة ولا نار إلا ببيان من الله، لكن يرجى للمحسن ويخاف على المسيء.

وقال رحمه الله (في موضع آخر): «لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية إذ الكلمات والعبادات، وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتًا عظيمًا، ومثل هذا الحديث الذي في حديث: المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله لها؛ فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك، ومثله قوله ﷺ: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة»** ا.هـ.



الفضل الثاني عشر:
تحريم النار على الموحد أصلاً فلا يدخلها، وإن دخلها فإنه يخرج منها

فقد جاءت الأحاديث الصحيحة المتواترة التي تصرح بأن من شهد بالتوحيد ومات على ذلك فقد حرم على النار.

فقد أخرج الشيخان من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة فقلت: وإن زنى، وإن سرق؟ فقال: وإن زنى، وإن سرق»**(١).

وأخرج الإمام مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»**(٢).

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه»**(٣).

فهذه النصوص وغيرها فيها بيان أن التوحيد ينفع صاحبه، فقد يحجبه أصلًا فلا تمسه النار، إذا كان ممن أدى حقها ولم ينقضها.

وقد بينت الأحاديث الصحيحة حال الموحدين في الآخرة، فإن كانوا ممن سلم من النار أصلًا، فقد تقدم ذكر حالهم، وإن كانوا ممن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (١٥٣).
(٢) ينظر صحيح مسلم برقم (٤٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٥٤).

يدخلون النار ويعذبون فيها، فقد بينت الأحاديث حالهم في النار وكيفية خروجهم منها ودخولهم الجنة، **فمن ذلك:**

١) أنهم إذا ألقوا في النار، فإن النار لا تغمرهم من جميع الجهات، فتمسهم وتلفحهم، لكن الله حرم على النار أن تأكل آثار السجود منهم.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل»**.

فالنار لا تأكل من الموحدين الذين أدخلوا النار أثر السجود إكرامًا لهم أولًا، ولكي تعرفهم الملائكة والشفعاء فيميزونهم، وفي الحديث: **«اذهبوا فاخرجوا من عرفتم»**[1].

فكيف يعرف الشافعُ المشفوعَ له إذا احترق وجهه؟.

ولله در القائل:

يا رب أعضاء السجود عتقها من عبدك الجافي وأنت الواقي

والعتق يسري بالغنى يا ذا الغنى فامنن على الفاني بعتق الباقي[2]

٢) ثم وهم في النار يميتهم الله إماتة حقيقية إلى أن يخرجوا منها

(١) أخرجه مسلم برقم(٣٠٣) وأحمد في "مسنده" (٢ / ٤٩)

(٢) ينظر: الأمالي الحلبية، لابن حجر ص (٥٣) نسبها إلى والده، وفتح الباري (١١/ ٥٥٩).

بالشفاعة، وقد صاروا فحمًا.

ففي صحيح مسلم عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم -أو قال بخطاياهم- فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل، فقال: رجل من القوم، كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية»**.

قال النووي في "شرح صحيح مسلم" (٣/٣٨): «وأما معنى الحديث فالظاهر -والله أعلم- من معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار، والمستحقون للخلود لا يموتون فيها، ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]. وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣].

وهذا جار على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم، وأما قوله ﷺ: **«ولكن ناس أصابتهم النار إلى آخره»** فمعناه: أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى، وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى،

ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحمًا" ا.هـ

وما أجمل كلمة نقلها ابن رجب الحنبلي رحمه الله تبيّن الفرق بين دخول الموحّد للنار وبين دخول الكفار، حيث قال: «قال بعضُهم: الموحِّد لا يُلقى في النارِ كما يُلقى الكفارُ، ولا يَلقى فيها ما يَلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار»[١].

٣) ثم بعد ذلك يأذن الله بالشفاعة.

فقد روى البخاري من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: **«ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة»**.

وعن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين»**.

وهذا اللقب -الجهنميين- لا يرون به بأساً، وليس من باب التعيير لهم من أهل الجنة -حاشا وكلا- بل يرون هذا اللقب منقبة وفخرًا؛ لأن الله أخرجهم من النار، ولكن بعد ذلك يُرفع عنهم هذا اللقب ويزال[٢].

٤) وبعد أن يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم يخرجهم سبحانه،

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٤٠)

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٣٠)، وأخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي سعيد، وزاد فيدعون الله فيذهب عنهم هذا الاسم.

فيلقون في نهر الحياة.

وقد بيت الأحاديث كيفية إخراجهم وحالهم وقت الإخراج فيخرجون:

(يحملون): أي من النار كما تحمل الأمتعة.

(ضبائر ضبائر): أي جماعات جماعات.

(كأنهم عيدان السماسم)[1]: إشارة إلى سوادهم، والسماسم جمع سمسم، وهو السمسم المعروف.

قال ابن الأثير رحمه الله في "النهاية في غريب الحديث والأثر" (٢/ ٤٠٠): «معناه -والله أعلم- أن السماسم جمع سمسم، وعيدانه تراها إذا قلعت وتركت في الشمس ليؤخذ حبها دقاقًا سودًا، كأنها محترقة فشبه بها هؤلاء الذين يخرجون من النار وقد امتحشوا».

وقوله: (فبثوا): أي فرقوا في النهر، والنهر في فناء الجنة.

(ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء): وهذا من أثر رحمته سبحانه بعباده، حيث هيأ لهم من يعينهم على هذا الأمر، فلا ينقطع التعاون على البر حتى في الجنة.

(فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل):

قال ابن الجوزي في "شرح مشكل أحاديث الصحيحين" (٣/ ١٣٧): «وحميل السيل: محمولة؛ فإن السيل يحمل من الغثاء ونحوه

---

(١) انظر: صحيح مسلم برقم (٣٢٠).

ما ينبت منه العشب، وشبه نبات الخارجين من النار إذا ألقوا في نهر الحيا -أو الحياة- بنبات هذه الحبة لمعنيين: أحدهما: سرعة نباتها. والثاني: أنها صفراء ملتوية (طرية) ثم تستوي وتحسن، فكذلك ينبت من يخرج من النار بهذا الماء نباتاً ضعيفاً ثم يقوى ويكمل نباته ويحسن خلقه. وقد جعل الله نبات أجساد بني آدم كنبات الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧].

وحياتهم من الماء، فنشأتهم الأولى في بطون أمهاتهم من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، ونشأتهم الثانية من قبورهم من الماء الذي ينزله الله عليهم وهم في قبورهم، فينبتون فيه كنبات البقل حتى تتكامل أجسادهم، ونبات من يدخل النار، ثم يخرج منها من ماء نهر الحياة - أو الحيا فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس[١] من بياضهم وصفائهم.

٥) وأما إخراجهم من النار، فإنه يكون حسب الأعمال وتفاوت الإيمان وبشكل محدد فيبين الله تعالى لنبيه ﷺ في كل طور من أطوار الشفاعة حدًا يقف عنده ولا يتعداه، **مثل**: أن يقول له: شفّعتك فيمن أخل بالجماعة، ثم فيمن أخل بالصلاة، ثم فيمن شرب الخمر، ثم فيمن زنى...، وهكذا.

وهذا يدل على: تفاضل مراتب المخرجين.

(١) هكذا جاء وصفهم في صحيح مسلم برقم (٣٢٠).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»**(١).

وفي كل طور من أطوار الشفاعة في الإخراج يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويخّر تحت عرش الرحمن فيقال له: **«اشفع، وهكذا...»**.

ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: **«فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فانطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا فيقال لي: يا محمد: ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل، ثم اعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم اخر له ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع راسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي: فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار فانطلق فأفعل، ثم يقول صلى الله عليه وسلم: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال: لا إله إلا الله»**(٢) -أي لأتفضلن عليهم بإخراجهم من غير شفاعة-.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (٣٢٦)، وقال النووي في شرح مسلم (٣/٦٥) «وجبريائي هو بكسر الجيم -أي عظمتي وسلطاني أو قهري- ».

٦) ومن صفاتهم أنهم بعد أن يغسلوا بنهر الحياة يكونون كاللؤلؤ من صفائهم وحسن مظهرهم، وتعلق في رقابهم الخواتم.

ففي الحديث: «**كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين ادخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم...**».

❋ قال النووي في "شرح مسلم" (٣/٣٣): «قال صاحب "التحرير": المراد بالخواتم هنا: أشياء من ذهب أو غير ذلك تعلق في أعناقهم علامة يعرفون بها قال: معناه تشبيه صفائهم وتلألئهم باللؤلؤ»[١].

٧) وبعد ذلك يأمر الله تعالى بإخراج كل من قال: لا إله إلا الله حتى ولو لم يعمل خيرًا قط وهنا تشفع لا إله إلا الله لصاحبها.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ وفيه: «**...، فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط**»[٢].

وأخرج البخاري عن حديث أنس، أن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال بره من خير، ويخرج من**

(١) ينظر: شرح مسلم للنووي (٣/٣٣).
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٢).

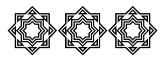
النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من الخير»[١].

فكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله): تشفع لصاحبها يوم القيامة وتخرجه من النار؛ لأن الموحد لا يخلد في النار.

قال العراقي رحمه الله: في "طرح التثريب في شرح التقريب" (٢٧٨/٨): «ومذهب أهل السنة، والجماعة أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير، والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلا فكل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلًا لكنهم يردونها خاصة، والورود على الصحيح هو المرور على الصراط، وهو منصوب على ظهر جهنم.

وأما من مات من أهل الكبائر عن غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بلا عذاب وألحقه بالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده، ثم يدخله الجنة فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل».

تم بحمد الله، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) صحيح البخاري برقم (٤٤).

فهرس الموضوعات

تقديم ٥

المقدمة ٦

تمهيد في حقيقة التوحيد ٩

أنواع التوحيد. ١٠

فضائل التوحيد.......................... **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

الفصل الأول: حصول الأمن والهداية للموحد ١٤

الفصل الثاني: التمكين في الأرض والنصر على الأعداء ٢٦

الفصل الثالث: أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد. ٣٣

الفصل الرابع: أن الله يعطي الموحد الحياة الطيبة والأنس والعيش الرغيد والبعد عن الحزن والأسى، والعصمة في نفسه وماله ٤٤

الفصل الخامس: أن التوحيد سبب للخيرات والبركات وكثرة الأرزاق ونزول الأمطار وجري الأنهار وإنبات الزرع والشجر.......................... ٥٥

الفصل السادس: أن التوحيد سبب لشفاعة المؤمنين للميت ٦١

الفصل السابع: أن أهل التوحيد أحق الناس وأسعد الناس بالشفاعة يوم القيامة ٦٤

الفصل الثامن: أن التوحيد سبب للنجاة من الكروب، فأما الكفار فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، وأما المؤمنون فينجيهم من كرب الدنيا والآخرة ٧٤

الفصل التاسع: أن التوحيد سبب للنعيم والسرور والحبور للموحد في قبره .. ٨٠

الفصل العاشر: أن من حقق التوحيد يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب..... ٨٧

الفصل الحادي عشر: أن كلمة التوحيد ثقيلة في الميزان يوم القيامة وترجح على الأعمال السيئة ٨٩

الفصل الثاني عشر: تحريم النار على الموحد أصلاً فلا يدخلها، وإن دخلها فإنه يخرج منها ٩١

فهرس الموضوعات ١٠٠